الفصل الثالث

صــورة نــار الكــرم
في الشعر الجاهلي

obeikandl.com

كان الوجه الخيِّر للنار – كقوة إنبات ونمو ، ومعادل حياة مع الإنسان في شتى مجالات الحياة – فهي منجية مطعِمة – دافعا وراء عَدٍّ كثيرٍ من العلماء والمفكرين النَار من أهم عناصر الكون ، كما ذكرته بعض المصادر، أن اكتشاف النار من أهم خطوات البشرية، فبشلار مثلاً يعدُّ النار هي بالضبط الموضوع الأول أو الظاهرة الأولى التي انعكست على الروح البشرية حتى رأى أن تسخير النار قد فصل الإنسان عن الحيوان فصلا نهائيا (٥٥٠) وبعض المصادر عرَّفتها بأنها الاختراع العظيم للجنس البشرى (٥٥١) وأخرى تعد التعرف على النار علامة واضحة وخطوة حضارية لها أبعادها (٥٥٢) حيث ترتب على معرفتها ما ترتب من تغير في نمط الحياة مما جلب للإنسان الراحة والأفضل في المأكل والمشرب.

ويقول جيمس فريزر: "من كل المخترعات الإنسانية ربما كانت طريقة إشعال النار أهمها وأغناها"(٥٥٣)، وقصة النار في تاريخ التقدم لم تنته عند الحياة البسيطة بل ترتب عليها كثير من المخترعات والمكتشفات والتجارب وتقول دائرة الديانات: "إن اكتشاف طريقة للحصول على النار يمكن وصفه بأنه من أهم خطوات الجنس البشرى على طريق التقدم" (٥٥٤)

---

(١) النار في التحليل النفسي جاستون بشلار ص ٥٣

(٢)The ency – Stundard Dictionary p “ 388” -

(٣) Americana vol "11" p "242"

(٤) أساطير في أصل النار جيمس فريزر ص٧

(5) Ency of Religion vol “6” p “ 26 “-

obeikandl.com

وقد أشار قاموس الكتاب المقدس إلى مناسبة وطريقة الحصول على النار وأهميتها كعنصر أساسي في الكون لدرجة أن عدها ركنا أساسياً في المثلث الأساسي (الماء، الهواء، النار)، وعدَّد مواضع الحديث عن فوائدها واستخداماتها وطرق استعمالها في الكتاب المقدس ([٥٥٥])

من هذا العرض المختصر لحديث المفكرين والموسوعيين عن النار، تتضح قيمتها في حياة الإنسان وتاريخه، كفعل حياة وكقوة حياة ، ولا ينتهي الأمر عند ذلك بل تأخذ النار الرؤية العامة لتشمل أكثر من ظاهرة ، فهي تجمع بين الخير مع الشر، وهناك نوعان من الانفعالات تجاه النار، أولهما الخوف منها كقوة مدمرة وثانيهما العرفان بالجميل لها كعنصر مفيد ومصدر للراحة ([٥٥٦]).

وتحدث عنها بشلار قائلا: تهيِّء لنا النار والحرارة أدوات تفسير في مختلف الميادين، لأنهما تتيحان لنا المناسبة لذكريات لاينالها البلى ، وهى النار ظاهرة ذات امتياز يمكنها من تفسير كل شيء، فالنار هي الحي الأعلى ، وهى داخلية وخارجية ، تحيا في قلوبنا، وتحيا في السماء تصاعد بين أعماق الجوهر وتتبدى لنا حبا ، ثم تعود فتهبط إلى قلب المادة ، وتختفي كامنة منطوية كالحقد والانتقام ، وهى الوحيدة من بين جميع الظاهرات التي يمكنها أن تتقبل كلتا القيمتين المتضادتين : "الخير والشر" تتألف في الفردوس وتستعر في الجحيم عذوبة وعذاب ، مختبر بداية ورؤيا نهاية ، مسرة للطفل يجلس وديعاً قرب الموقد ، غير أنها

---

(٦) قاموس الكتاب المقدس د. بطرس عبد الملاك، جون ألكسندر ، الأستاذ إبراهيم مطر مكتبة المشعل بيروت ١٩٨١ ط ٦ مادة " نار " ص ٩٨٣ .

(١) - Ency of religion vol “6” p “27”

تعاقب كل عصيان إذا ما أريد الدنو منها كثيراً والعبث بها ، هناءة واحترام إله حارث ورهيب ، طيب وخبيث يمكن أن تتناقض مع نفسها ([٥٥٧]).

لذا تعد النار بشكل أولى بداية الأشياء وبها تُوجد كل الأشياء ([٥٥٨]) وعَدها البعض قوة مبدعة في الإنبات حتى أصبحت معادلاً للماء ([٥٥٩]) وقد تعامل التسمانيون والريفيون الروس والنرويجيون القامى مع النار على أساس هذه الفكرة عن النار، فلم يسمحوا لنيرانهم أن تترك منازلهم ، وكانوا يحملونها معهم إلى دورهم الجديدة ، ورفعوها حتى جعلوها في المبدأ الأبدي ([٥٦٠]).

فالنار تنتقل بشكل تطوري من شكل نفعي إلى إيحاء نفسي ثم إلى رؤية دينية لها أبعادها الروحية التي تمثلت في تصرفات مثل هذه الشعوب ، وهى فى التراث العربي لها رؤية قد تطورت من الشكل

النفعي المادي إلى الانعكاس النفسي، فيروى الجاحظ أن أعرابيا اشتد عليه البرد فأصاب ناراً فدنا منها ليصطلي بها وهو يقول اللهم لا تحرمنيها فى الدنيا ولا فى الآخرة ([٥٦١])، وقد عرض لقصة الرجل الذي ألقى في ماء راكد وهو يدفأ باستئناسه بضوء نار عن بُعد ([٥٦٢]).

---

(٢) النار في التحليل النفسي جاستون بشلار ترجمة نهاد خياطة ص ١١

(٣) – Man myth and magic p " 97٥ "

(٤) - Dictionery of symbls and Imagery p " 187"

(٥) - Ency of religion and ethies - vol " 6 " p " 27 "

(١) الحيوان للجاحظ حـ٢ ص ١٧٨

(٢) المرجع السابق حـ٥ ص ١٧٩

فالنار ملاذ للإنسان فى الشتاء ومفازة من هلاك البرد، لدرجة أنها نالت نظرة الأم الحنون والحضن الدافئ ، يلوذ به الفارُّ من البرد .

فقال الحطيئة مبينا قيمة النار للمقرور شتاء: ـ

إِذَا كَانَ الشِّتَاءُ فَأَدفِئُونِـــى فَإِنَّ الشَّيْخَ يَهْدِمُهُ الشِّتَـاْءُ (٥٦٣)

فالشتاء والمقصود برده يهدم – أو يهُرم فى رواية– الشيخ والمفر هو التدفئة بالنار.

والشنفرى الأزدى يشير إلى اضطرار الإنسان لاستخدام النار فى التدفئة ومحاولة الحصـــول على النار ولو بالتضحية بأغلى شىء وهو سلاحه والمتمثل فى " قوسه" ، حيث يوقد النار فيها فيدفأ :

وهذا شكل فنى آخر لاستخدام صور النار فيقول الشنفرى :

وَلَيلَةِ صرٍّ تصطَلِى القَوْسَ ربُّهَا وَأَقطُعَه اللاَّتِى بِهَا يَتَنَبَّلُ (٥٦٤)

والشنفرى هنا يضع أيدينا على مكانة النار ، ومدى اضطراره لها وخطورة الحرمان منها، فقوس العربي – كسلاح– من أغلى وأعز الأشياء التي يمتلكها ، ورغم ذلك فهو يضطر لحرقها لأجل الحصول على النار التي هي بمثابة مفازة من شدة البرد أو الجوع ، وهذا البيت بالغ في التعبير عن كقيمة لا يمكن إهمالها فى حياة العرب ، علاوة على ما يضيفه من استخدام فني يمكن تسميته أيضا من التصوير بالسالب فقد عُبِّر عن البرد باستخدام النار.

بهذا الوجه النفعي للنار ظهرت من بين نيران العرب صور ورموز خيِّرة كنار الكرم ، ونار الاستسقاء، ونار السليم من بين الأربع عشرة ناراً المذكورة فى كتب التراث وكتب التاريخ العربي، وهذه النار ذات الوجه الخيِّر تُعدّ الوجه الآخر لعملة النار ذات الوجهين، فالوجه الأول وهو الشرير المتجسد في نار الحرب المدمرة ، وهذا الوجه الذي تجسَّد فى نار

---

(٣) ديوان الحطيئة ص ٦١

(٤) مختارات شعراء العرب لابن الشجري تحقيق د. نعمان طه، مكتبة التوفيقية بالأزهر ١١٩

الكرم الموقدة لهداية الضال، ودلالة الأضياف ، ونار الاستسقاء، التي تحاكى البرق الذي كان يترقبه الإنسان فى البادية، والنار المضيئة فى وجه المرأة الحسناء ربة الخصوبة والميلاد الذي به تستمر الحياة ، ويضاد الموت والفناء ، وفى الرجل الخيّر المشهور والذي يشد النظر إليه كالشمس ، والقمر ، والكواكب ، والشهاب ، والنار في رأس العلم.

هذه ملامح صورة النار الخيِّرة المترسبة فى أذهان العرب ، والمستوحاة من واقع بيئتهم ، والمتراكمة عن تراثهم الديني والشعبي ، فهي أم خيِّرة مطعمة ، منجية هادية ، فعل حياة ، بداية من نار الكرم تشرق فى الشعر الجاهلي ، وكتب الخير والأدب حيث يوقد الإنسان الكريم النار " نار القرى " وهى من أعظم مفاخر العرب، وهى التي تُرفَع للسفر ولمن يلتمس القرى ، فكلما كان موضوعها أرفع كان أفخر، وهى نار في الحقيقة لأعلى المُثل ، ويوقدها أيضا لطهي الطعام، حيث تظهر مستمرة في الشعر لا تنطفئ، وقدرُه مسودَّة من كثرة استعمالها واستمرارها ، وتظهر أيضا الأثفية في الإطلال رمز الإطعامٍ ، وربِط خراب الأثفية بخراب الديار، لأن الأثفية كانت لدى العربي مكان النار إلام المطعمة والمقدسة، وعليها بكى ، واقترن وصف الديار بذكر الأثفية كلازمة فنية بشكل متكرر يحتاج لقراءة متأنية ووقفة أمامها، مع محاولة ربط هذه الظواهر الأدبية بظروف العرب وطبيعتهم ودياناتهم وأساطيرهم ، علّنا نلمس العلاقة بين صور الشعر الجاهلي وأصوله الأسطورية من خلال هذه الظواهر الأدبية.

فظاهرة الكرم كظاهرة اجتماعية لم تَتفشَّ بين العرب الجاهليين من فراغ ، بل لها روافد أهمها طبيعة أرضهم ومناخهم ، وتركيبتهم الدينية والاجتماعية، مما صور الكريمَ رجلاً مثالاً به يُفتخر كما يفتخر بالشجاع تماماً، وكذلك العكس فالبخيل يعُيِّر بأنه بخيل كما يُعيَّر بالجبان تماما، وقد لمس النويهى هذه العلة في ظهور صفة الكرم في العرب، وجعلها

سببا طبيعيا واجتماعيا قائلا: " فتلك الحياة البدوية المتنقلة كانت تهدده في رزقها الذي هو ماء المطر، فما من قوم أغنياء إلا وهم عرضة لأن يكونوا فقراء ، وعرض الأبيات:

لا تحرم المولى الكريمَ فإنَّـــهُ أَحُوكَ ولاَ تدرى لَعَلَّكَ سَائِلُـــةْ

وقول آخر:

عسى سائل ذُو حَاجَة إن مْنعتَهُ مِنَ الْيَومِ سُؤْلاً أَنّ يَكَوَنَ لَهُ غَدَا (٥٦٥)

وقد تناول د. صلاح عبدالحافظ الفكرة بشكل وصفى، متخيلاً الإنسان الجاهلي وسط ناره وهو يوقدها في الصحراء ، ودورها في تولُّد، صفات حميدة كالكرم (٥٦٦) فالكرم صفة تمخضت عن الطبيعة العربية وظروفها لدرجة جعلتها فى تركيب العربي ، فأصبحت صفة يُفتخر بها ، وينال صاحبها السيادة والاحترام كالشجاعة تماما.

وما ذاع صيت حاتم واشتهر بين قومه سيدا إلا من خلال كرمه الذي افتخر به في شعره فيقول

يَقُولُونَ لي أَهَلَكتَ مَالَكَ فَاقْتَصِدْ وَمَا كُنُتُ لَوَلا ماَ تَقُولُونَ سَيَّدَا (٥٦٧)

ويفتخر أيضا بهذه السيادة التي نالها من خلال خدمته للضيف ويعدها من شيم المروءة فيقول :

وإني لَعَبَدُ الضَّيُفِ مَادامَ سَـــاوياً

وَمَا في إِلاَّ تِلْكَ مِنّ شِيْمَةِ الْعَبْـــدِ (٥٦٨)

---

(١) الشعر الجاهلي منهج دراسته وتقويمه د. محمد النويهى، الهيئة القومية للطباعة القاهرة د.ت ص٢٣٥

(٢) وراجع أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي منذر الجبورى ص ٦٦

(٣) الزمان والمكان وأثرها في الشاعر الجاهلي وشعره د. صلاح عبد الحافظ، حـ١ ص ٣٣

ديوان حاتم الطائي ص ٨

(٤) نفسه ص٩

وطرفة يفتخر بقومه ، حيث إنهم حين يقيمون مأدبة، لا يختصُّون بها قوما دون غيرهم ، فهم يشملون بدعوتهم كل الناس يجتمعون على طعامهم الكثير الذي يبذلونه كرما وجودا ، ولا يختص لديهم ضيف بالدعوة، وخاصة فى الشتاء الذى يكون فيه العربي ميَّالا للحرص أكثر من أي وقت آخر لظروف مناخه وطبيعته ٠ فيقول :

نَحْنُ فِي المشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلَى لاَ تَرىَ الآدِبَ فِينَا يُنتقَـرْ (٥٦٩)

والرجل العظيم لديهم ، هو من بذل طعامه لمن يعرف، ومن لا يعرف في الليل قبل النهار ، وبالشتاء قبل الصيف ، وهو من يجود بآخر ما عنده، وما أكثر ظهور الأجواد ومدحهم فى الأدب العربي ، وقد مدح أحد

الأجواد على صفة البذل، لدرجة أنه يسعد بمن يسأله كأنه يعطيه لا يأخذ منه ، وهو يجود بكل ما عنده ولو كانت نفسه آخر ما فى يده لجاد بها، فيقول الشاعر :

تَرَاهُ إِذَا مَاْ جِئْتَهُ مُتَهَلِّـــلاً كَأَنَكَّ تُعْطِيْه الذي أَنتَ سَـائِلُهُ

فَلَوْلَم يَكُنْ فِىْ كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ لَجَادَ بهـا فَلْيَتَّقِ اللّهَ سَائِلُـــه (٥٧٠)

وتُعَدّ صفة الكرم عند العرب من لوازم المحافظة على الحياة ومقاومة الموت والهلاك في مفاوز الصحراء في ليلها قارس البرد ، وحالك الظلام وتتداخل صورة النار بوجهها الخير بدافع اللاوعي العربي ، حيث يشعلها كلافت طبيعي يظهر فى ظلام الصحراء كعلامة على الطهي والطعام، فأصبحت النار رمزا للطعام والنجاة والدفء ، وليس العرب بدعا فى ذلك ،

(٥) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب حـ١ ص ٣٨٦ وراجع البخلاء للجاحظ ص ٢١٦ "الجفلى" دعوة الناس عامة إلى الطعام من غير تخصص راجع حـ ١ ص ٦٤٣ ، والمعجم الوسيط حـ١ ص ١٢١ "يُنتَقَر" اختياره لدعوى الوليمة " من بين القوم دون غيره راجع اللسان حـ٦ ص ٤٥٢ ، والمعجم الوسيط حـ٢ ص ٩٥٣ ٠

(١) المستطرف فى كل فن مستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد الابشهى دار الحياة بيروت د. ت، ص ٢٣٩

فالنار لم تفارق منزل الأمريكان القدماء لدرجة أن احدهم عندما يُشّيد منزلا فإنه يأخذ ناراً من المنزل القديم لكي تشعل ناره الجديدة فى بيته ولا تنطفئ، وكذلك اليونان القدماء (٥٧١).

فالنار تمتلك الشكل الخيِّرَ مانحَ الحياة المطعم الدافئ ، مرشد الضال فى الصحراء ، لذا ظهرت النار فى الشعر الجاهلي فى صورة الكرم بشكل طيب مريح يُفتَخَر به فى أكثر من شكل مثل : " نار القِرى " التي توقد لإرشاد الضال بالليل ولإكرامه ، أو " نار القِدر" التي كانت توقد لصنع الطعام وطهيه ، ومنها " نار الشواء" وهذه النيران على خلاف النار الشريرة المخيفة ، فهي وجه عذب وصافٍ للنار وصفها بشلار بأنها " النار الحلوة المعتدلة البلسمية التي تسرى فى الأمزجة " (٥٧٢) وهى التي عرفها الإنسان البدائي " الحامية من البرد وكأداة طهي"(٥٧٣).

وظهور النار فى صورة الكرم الجاهلي بتكرار ملحوظ، ومن خلال ربط هذا التكرار بالأصول الموروثة لدى الإنسان القديم عموماً، يجعل النار الخيَرة ضمن لغة الرمز الشائعة والمتطورة للجنس البشرى (٥٧٤)

ويجعلنا نعدُّها ضمن اللاشعور الجمعي الذي يتدفق فى شعر الشعراء بشكل غير واعٍ، معبراً عن قضايا الإنسان القديم، ومشاكله الوجودية، وتوتراته النفسية، وهنا يعكس الفن صورة للتركيبة العربية وواقعها وقضاياها فى الحياة، وإذا تناولنا أول صور نار الكرم، والمتمثلة فى نار هداية الضيف وجدنا أنها من أشهر نيران العرب وقد تَحَدَّثتْ عنها كتبُ الإخبار،

---

(٢) – Standrod Dicction p"389"

(٣) – The new ency – brita vol "4" p 2788

(٤) النار فى التحليل النفسي جاستون بشلار ص ١٢

(٥) - The torgotten langage p"25"

وراجع قراءة ثانية لشعرنا القديم د.مصطفى ناصف ص ٥٤ والصورة الأدبية د. مصطفى ناصف ص ١٧٤ .

والأدب القديمة بشكل وافر، وقد أشار البحث إلى مواضع ذكرها سالفا، فقد تناولتها كتب تاريخ الأدب الحديثة بالوصف، فهي من سننهم وكانوا يوقدونها ليلا على كثبان الجبال ليهتدي إليهم التائهون والضالون فى الفيافى ([٥٧٥]).

وهى من أعظم المكرمات فى تلك الصحراء مترامية الأطراف ليهتدي ، بها الضيفان ، فيعرفون منازل القوم فيفدون إليهم حيث يجدون بينهم المنزل السهل، والترحيب الجميل، والمقام الكريم كأنهم بين العشيرة والأهل ([٥٧٦]).

وقد ذكر د.الحوفى هذه الظاهرة ونقل عن المزربانى بيت عمرو بن عبدالله العجل.

إذا أخمدت النيران من حِدَر القِرَى رأيتَ سَنَا ناري يُشَبُ اضْطِراّمُهَاَ([٥٧٧])

وهذه النار التي كان يوقدها العربي قد ظهرت فى الشعر بشكل يعكس مكانتها عند من يوقدها من خلال حديثه مفتخرا بها، وواصفا لها بشكل تفصيلي، وكأنه يتعمد التأني عند الحديث عنها لاستمتاعه وارتياحه لذكرها لما لها من مكانة فى صدره، فهي نار الحياة المباركة التي تُنقذ عابر السبيل الذي ربما تحيله الأقدار فيصبح مكانه ، والأيام عندهم دول، فهو يوقدها قبيل الصبح أي بالليل يقول كعب: ([٥٧٨])

(١) تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي"د. شوقى ضيف، دار المعارف مصر ١٩٨٨ ص ٦٨

(٢) فى تاريخ الأدب العربي د. على الجندي دار المعارف مصر د.ت ص٦٩

(٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلي د. أحمد محمد الحوفى ص ٣١٥

(٤) شرح ديوان كعب بن زهير ص ١٨٥ والبيت فى ديوان كعب بن زهير

وَنَارٌ قُبَيْلَ الصُّبْحِ بادَرْتُ قَدْحَهَا حيا النَّارِ قد أَوقَدْتُهَا لِمُســافِر (٥٧٩)

ويلاحظ هنا أنه يوقدها بالليل وفى آخره بالذات "قبيل الصبح" وهذا الوقت يكون المسافر فيه أكثر وحشة وحاجة للطعام والدفء والمبيت، وهى أيضا أشق على من يقوم بالخدمة ويقصدها فى ذلك الوقت الذي يستوجب الراحة والسكون.

ولم يبادر قدحها فى هذا الوقت الحَرِج والضروري بالنسبة للضيف فحسب، بل يجتهد فى رفعها عالياً كأنه يحاول الدعاية إليه وكأنه مُرَوِّج سلعة وسط سوق لاستجلاب مبتاعيها بحثا وراء ربح ، ماذا يربح العربي ؟ هل ينتهي الأمر عند الفخر الاجتماعي ؟

الواضح من خلال هذه الظاهرة أن هناك دافعا روحيا وراء هذه الممارسات ، من المحتمل أن العربي كان يتبرك بهذه النار فى هذا الغرض، لدرجة أخذت عنده شكل التزام يتطوع به ويأخذه على عاتقه، وقد ظهر فى شعرهم بشكل متكرر يوحى بهذه الدلالة ، وقد كانت هذه الخصلة عند العرب "الكرم" والإسلام قد لمسها بينهم، فبارك إطعام الطعام والإحسان إلى ابن السبيل والمسكين والفقير يقول سحيم : عن رفعه نار الكرم لضيوفه:

فَقَدْ أعصرُ النَّاب ذات النَّلــل يل حتَّى أُحَاوِلَ مِنْهَا سدَافَــا

بمثني الأيَادِى لِمَنْ يَعْتَفِــى وَأرفَعُ نَارِى إذَا مَا اسْتَضَافَــا(٥٨٠)

والمثقب العبدى يرفعها لضيفه بكفه قائلاً :

رَفَعْتُ له بالكفِّ ناراً تَشُبُّهــا شآمية نكباءُ أو عاصفٌ صَبا (٥٨١)

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير ص ١٨٥ والبيت فى ديوان كعب بن زهير

(٢) شرح ديوان كعب بن زهير ص ١٨٥

وعدى بن زيد يرفعها لضيفه مستخدما فيها شجرا طيب الرائحة :

رُبَّ نَارٍ بِتُّ أَرفَعُهَـــــا نَقْضِمُ الهندي والغَـــــار([٥٨٢])

وهى على الرغم من علوها وظهورها فهي شقراء لامعة عند مزرِد من ضرار فيقول

فَأَبْصَرَ نَارِى وَهِى عَلْياءُ أُوقِـــدَتْ

بِعَلْيَاء نشـــز للعُيَون النَّواظِرِ ([٥٨٣])

وهى ظاهرة ليس هناك من يخفضها جُبنا ولا بُخلا عند حاتم :

وَلَيْسَ على ناري حِجَابُ يُكِنُّهـا لِمُستوحِب لَيَلاً ولكنَ أنِيرُهـــا

فَلا وَأَبِيْكَ ما يَظَلُّ ابن جَارَتِـى يَطوفُ حَوَالىْ قِدْرِنَا-"مَا يُطُورُها"([٥٨٤])

فهو ينفى وجود حجاب يحجب ناره عن المستضىء ليلاً، ولكن هو يزيد من إنارتها ففتاه يطوف حولها وهو يحشها، ولا يدنو منها، حتى لا يكون سبباً فى سَتْرها عن الضيف ، ويلاحظ التلازم بين النار والقدر، وكأنَّ القِدر هى مصدر الضوء فهذه مفخرة لديه ، فيقسم أنها فى متناول ابن الجارة ، ولاحظ أنه ركَّزعلى الابن الذي يكون بمثابة الرضيع عندها وهنا يعكس الأمومة فى القدر ، كذلك الرؤية الدينية فى الطواف حول هذه القدر.

---

(٣) ديوان سحيم عبد بني الحسحاس تحقيق عبد العزيز الميمنى، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة سنة ١٩٦٥ ص٤٠ "الناب" الناقة المسنَة ، " التليل " ذات ات العنق " السداف" قطع السنام " بمثنى الأيادى " : يد بعد يد أى نعمة بعد نعمة ، " المعتِفى" الطالب المعروف

(٣) الأمالى لأبى على القالي البغدادي، دار الكتاب العربي بيروت د.ت حـ١ ص ٦٠

(٤) البخلاء لأبى عثمان عمر بن بحر الجاحظ دار الكتب لعلمية بيروت ١٩٨٣حـ٢ ص ٢١٩

(٣) ديوان حاتم الطائي ص ٦٣

ويرسم الشاعر الجاهلي لوحةً لَنار الكرم – " نار هداية الضيف" – يصور فيها مشهداً تمثيليا عندما يسمع الداعي أو المستنج فيرفع له النار ويناديه ، أو يخرج كلبه يسمعه الصوت ويدله بنباحه ثم يستقبله بالترحاب، وبالوجه المتهلل عند قدرة يقدم له الطعام وتظهر النار كعنصر أساسي عند النمرى – وقيل رجل من باهلة – فيقول :

وَدَاعٍ دَعَا بَعْدَ الهُدُوِّ كأَنَمَـــا يُقَاتِلُ أَهْوَالَ السُّرى وَتُقَاتِلثـــه

دَعَا بَائسا شِبْهَ الْجُنُونِ وَمَابِـــه جُنُونٌ ولَنّ كَيْدُ أَمْرٍ يحَاوِلُـــه

فَلمَّا سَمِعْتُ الصَّوتَ نَادِيْتُ نَحْوه بَصَوْتِ كَرِيْمِ الحَدِّ حُلْوٍ شَمَائِلُـــة

فَأَبّرزْتُ نَارِى ثُمَّ أثقبت ضوءَهَا وَأَحْرَجَتُ كَلَبِى وَهَوَ فِى البَيْتِ داخله([٥٨٥])

وتلاحظ تركيز الشاعر وإبراز قيمة ناره وأهمية وظيفتها، فيركز على وصف حال المستغيث بشكل تفصيلي دقيق ، ليقننعنا بمفخرته ودوره الخطير، فالداعي دعا بعد الهدوء أي بعد سكون الليل ونوم الناس حيث شدة الظلام والبرد وتفاقم المخاطر ، وهو فى صراع مع أهوال السري واستخدام صيغة " يفاعل" يقاتل يفيد المشاركة فى القتال ، أي هناك طرف آخر يقاتله – وتسمى "صيغ المفاعلة" – وهو يكرر استخدام مشتقات مادة " قتل" فى "يقاتل"، "تقاتله"، وهذه الصيغ وتكرارها يفيد تورط الداعي وانتكاسه فى هذه الظروف، ويؤكد ذلك فى البيت الثاني فهو يبدو "بائسا" وكأنه مجنون وليس بمجنون، ولكن شدة الأمر الذي يحاوله، وهو النجـاة من هذه "الورطة" التي وقع فيها، وهذا الصراع بين الموت

(٤) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب للألوسى حـ١ ص ٦٤ .

والحياة، ويذكرنا بوصف القرآن للناس يوم القيامة ليدلل على شدة العذاب بنفس الصورة " وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد"([٥٨٦]).

فهو ليس بمجنون ولكن ظروفه المحيطة كانت شديدة فجعلته كالمجنون، وهنا يبين قيمة المغيث الذي ناداه بصوته، أي صوت ؟ "كريم الجد" ، "حلو شمائله" وهذه صيغة جميلة يصف فيها الشاعر كرمه بأبلغ ما يمكن، وهو أن كرمه بلغ صوته، فَكَرُم الصوت من شدة كرم صاحبه الذي امتد لكل أفعاله وصفاته حتى صار كريما حلو الشمائل.

ويروى الألوسى مشهدا آخر لأحد الشعراء يصف فيه لوحةً أيضا لحادثةٍ مع نار الكرم، تبرز دور هذه النار وتلك الصفة فى نظرة العرب:

مستنبح تَهْوِى مَسَاقِطُ رَأْسِــهِ إِلَى كُلِّ شَخْصٍ فَهُوَ السمع أَصْــورَ

يصُفِّقُهُ أنفٌ مِنَ الرِّيحِ بّــارِدٌ وَنكباءُ ليلٍ مِنْ جُمَادَى وصَرْصَــرْ

حَبِيبٌ إلى كَلءبِ الكَرِيَمِ مُناحُــه بَغِيضٌ إلى الْكوماَءِ والكلبُ أَبْصَــر

حضأت له نارى فَأبصْرَ ضَوْءهَا وَمَا كَادَ لَولا حَضْاةُ النَّارِ يُبصِــرُ

دعته بغيرِاسْمٍ هَلُمَّ إِلى القِــرَى فَأَسْرَى يَبُوعُ الأَرضَ والنَّارُ تُزْهِــرْ

فلمَّا أَضَاْءَتْ شَخْصَه قُلتُ مَرحّبَاً هَلُمَّ وَلِلصَّالِيْنَ بالنَّارِ أَبشِــرُوا([٥٨٧])

---

(١) سورة الحج آية (٢)

(٢) بلوغ الأرب فى معلافة أحوال العرب للالوسى حـ١ ص ٥٩

وهنا نلاحظ أيضا تركيز الشاعر على تصوير حال المستغيث ليبرهن على أهمية ناره المباركة، فحاله حال ضياع وهلاك حيث تهيج عليه الرياح ، رياح هلاك ودمار ، فالريح باردة فى ليل "جمادى" الذي يجمد فيه الماء فهي صرصر، وفى شهر جمادى بالذات لها طابعٌ قاسٍ، ويأتي دور الترحيب، فهذا المكروب يكون حبيباً منشوداً يُبحَث عنه لإكرامه، حبيباً لمن ؟ لكلب الكريم! فالكريم يصل الكرم عنده لكل شئ حتى كلبُه يكون كريمً يحب الاضياف ويحتفي بهم ويستقبلهم، ولم ينته الكرم عند الصوت كما فى المقطوعة السابقة ، بل يتحدث عن ناره الكريمة أيضا، فبعد أن رفعها له فرأى ضوءها وأقبل عليها دعته هذه النار لإكرامه، وهل كانت تعرفه هذه النار؟ لا بل دعته " بغير اسم هَلُمَّ " أي أن هذه النار من شدة كرمها وأصالته تدعو من تعرف ومن لا تعرف إلى القِرى ، ثم فى النهاية يختم بأنه رحَّبَ به وبشر موقدي النار بضيف جديدّ.

ويُروى أيضا:

ومستنبح قالَ الصَّدَى مِثْلَ قَوْلِـهِ حَضَأتُ له نَاراً لها حَطَبٌ جَزْلُ

فقمت إليه مُسْرِعَاً فَغَنِمْتُـــــهُ مَخَافةّ قومي أَنْ يَفُوزوا بهِ قبلْي(٥٨٨)

وهو أيضا يلخص لنا حال المستنيح من خلال ندائه الذي ارتفع حتى كان له صدى ، والصوت فى الصحراء إذا ارتفع كان له صدى يقول مثل قوله ، أي أنه كان يصيح بالاستغاثة منادياً تارة ومقلداً لصوت الكلب تاره ، وهذا له دلالته على مدى الكرب ، فرفع النار أيضاً له ، ثم سارع إليه وكأنه سبق تجارى متنافسا على الفوز به، كأنه سيعطيه لا يأخذ منه ٠

(١) المرجع السابق حـ١ ص ٤٩

وترد أحداث هذا المشهد عند أبى على القالي : حيث يروى فى الأمالى لأحد الشعراء :

ومستنبحٍ باتَ الصَّدَى يَسْتتيهــهُ فَتَاه وَجَوْزُ اللَّيَلِ مُضطَرِبُ الكسْرِ

رَفَعْتُ لَهُ نَاراً تُقُوباُ زِنَادُهَــــا تُلِيحُ إِلَى السّارِى هَلُمَّ إِلَى قِـدْرى

فَلمَّا أَتَى والْبُؤسُ رَادِفَ رَحْلِــهِ تَلَقَّيتُه مِنَى بوجهِ امَرِئٍ بشْــرِ([٥٨٩])

وعند الجاحظ فى الحيوان يحكى عبيد بن الأبرص القصة نفسها قائلاَ: ـ

ومستنبحٍ يَخشَى العَداة ودَوُنَــهُ مِنَ اللَّيلِ بابا ظُلمةٍ وَسُتُورهَــاْ

رَفعتُ لَهُ نَارا فَلَمَّا اهْتَدَى بِهَــا رَجَرتُ كِلابِى أنْ يَهَّر عَقُورهُــا

فَلا تسألنِّي واسألن عَن حَلِيْقَتِــي إِذَا رَدَّ مَا فِى القِدر مَنْ يَستعيرُهَــا

تَرى أَنَّ قِدْرِي لاَ تزالَ كأَنَّهَــا لِذي الغرثِ والمقرُورِ أُمَّ يزُورُهَا

مُبَّررةُ لا يُجَعَلُ السِّتْرُ دُونَهــا إِذَا خمدَ النيْرانُ لاَحَ بَشِيرُهَــا([٥٩٠])

(٢) الأمالى لأبى على القالي دار الكتاب العربي بيروت د٠ت حـ١ ص ٢١٠

(١) الحيوان للجاحظ تحقيق فوزي عطوى حـ٥ ص ٢٣٥ ، ٢٣٦

obeikandl.com

وهو هنا يكرر الأحداث نفسها، مع ملاحظة أن القدر عنده تحمل معاني الأمومة والحنان، فهي ترضع ولدها وتحنو عليه وتطعمه وتدفئه وأي ولد؟ الذي يزروها عن غياب لفترات، فما أشد حنو الأم حينما يكون ابنها بعيدا عنها ويزروها ، فكيف يكون احتفالها وعطاؤها؟

يقول المثقب العبدى أيضاً :

وَسَارٍ تَعتَّاه المبيِّتُ فلمْ يـــدَعْ لَهُ طَامِسُ الظَّلماءِ واللَّيلُ مَذهبَا

رَأى ضَوءَ نارٍ منْ بَعيدٍ فَخَالَهَـا لقد أَكذبَتهُ النَّفسُ بلْ أَى كَوكبَـا

رَفعت له بالكف نارا تشبهـــا شَآميةً نكباءُ أو عاصِفُ صَبَـا

فلمَّا أتانِى والسَّماءُ تَبلُّـــــهُ نلقيته أَهْلاً وسَهلاً ومَرَحبَـــا([٥٩١])

هذه المقطوعات التي اختارها الباحث من بين نماذج كثيرة تتكرر فيها أحداث ومشاهد نار الكرم وإيقادها واستقبال الأضياف بها، وتتدخل صورة النار المشعلة وهو يزيد إشعالها ويرفعها بكفه ، ويضعها على ربوة فتشبها الريح ليراها الضيف ، فالنار هي محور الأحداث وحولها نسجت قصة الكرم ، واستقبال الضيف بشكل متكرر يمارسه البدوي ، ويظهر فى الشعر كلازمة فنية ، ألا يذكرنا هذا بالنار المباركة فى الفكر السامي القديم والتي تقدم إليها التقدمات على المذابح؟!.

(٢) ديوان المثقب العبدى، تحقيق حسن كامل الصيرفي، الشركة المصرية للطباعة والنشر، مصر، سنة ١٩٧١ ص ١١٧.

والشاعر الجاهلي يورد حديثه –فى سياق فخره بنار الكرم– مع غيره من موقدي النار، فهو يوصى بها ألاً يستروها، وأن يرفعوها بمكان عال، وأن يوقدوها بحطب جزل، ويَعِدُ عبده أن يُعتقه إن جلبت النار ضيفـــاَ ، وهو يوصـــى ولده بكلبته خيرا فهي توقظ موقد النـــار إن نام وتدل الضيف عليهـــا وفى

هذه الصور رغم تكرارها دلالات تستدعى البحث عن أصل لها يجعل هذا الذكر مستساغا لدى المنشئ فعند حاتم يقول لصاحبته وهو يقف على النار :

ولاَ تسَتَرِي قِدري إذَا مَا طَبخِتهَا علىَّ اذاً ما تَطبُخِينَ حَـــرَام

وَلِكن بِهذاكَ اليَفاعِ فَأَوْقِـــدِي بِجَزلِ إذا أَوْقدَتِ لاَ بِضْـــرَامِ (٥٩٢)

وكأننا به واقفا على النار يشرف على إيقادها بنفسه، ويوصى الذين يعملون بإيقادها الا يستروها، وأن يرفعوها ويستخدموا لإيقادها حطبا "جزلا" حتى تكون نيرانها قوية ومستمرة ، وهو أيضا يُحِّرم على نفسه الطعام، إذا ستر عن الضيف ، وتتكرر هذه الصورة عند المرار الفقعسى :

وآليت لا أخفِى إذا الليل جنَّنـى سنا النَّار عَنَ سَار ولا مُتنـِّورِ

فياموقدى نارى ارفعاها لعلهـــا تَضْيء لسارٍ آخر اللَّيل مُقتـــرِ

ومَاذا عليَنَا أنْ يواجِه نارَنَـــا كريم المحيا شاحب المتحـسر(٥٩٣)

---

(١) أشعار الشعراء الستة الجاهلين،للأعلم الشنتمرى دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٧ص ٢٦٨

وانظر ديوان حاتم الطائي ص ٨٨ "اليفاع" المكان المرتفع

(٢) بلوغ الأرب للألوسى حـ١ ص ٦٧

ويلاحظ هنا وصف الشاعر أن ضيفه كان "كريم المحيا" فالكرم ايضاً يصطبغ به كل ما يُحيط بالكريم، كما سبق فالكلب كريم ، والصوت كريم ، والنار كريمة ، وأيضا الضيف أصبح كريم المُحَيَّا.

وحاتم أيضا يكرر الأمر بإيقاد النار بشكل ملح قائلاً:

أوقد فإن الليلَ لَيــلٌ قــــرُّ والرِّيحخ يا موقدُ ريْحٌ صــــرُّ

علَّ يرى نارك مَنْ يَمتـــــرُّ إن جلبت ضيفاً " فأنت حُـرُّ([٥٩٤])

وفى رواية الديوان "عسى يرى نارك" والملاحظ فى هذين البيتين أمر حاتم فتاه بإيقاد النار بشكل فيه إلحاح، وهو واضح فى إيقاع الأبيات من سرعة الأداء ، مع ملاحظة وقع حرف الراء الذي التزمت به القافية فى صدر البيت وعجزه، وفيه تشديد يعكس صوت الراء الشدة والسرعة والإلحاح، مع حزم الأمر واضطرابه في الطلب وفى معاني الكلمات داخل البيت الأول يلاحظ: تكرار كلمتي " الليل " ، "الريح" فهما

يهددان الضيف وعليه يهددان الكريم "فالليل ليل قر" أى بارد، "والريح ريح صر" أي عاصفة، لهذا اهتم الكريم وألقي أوامره وكأنه يُستنفر لإنقاذ من يتعرض للموتْ والبيت الثاني يؤكد هذا الاهتمام والعزيمة الموجودة فى نفسه حيث ينذر ويعد بعتقه إن جلبت النار ضيفا.

ويأمر حاتم أيضا فتيانه أن يتوسعوا فى نار القِرى قائلا:

إذا مَا البَخِيلُ الخبُّ أَخمَدَ نَـارَهُ أَقُولُ لِمَن يَصلَى بِنضـارِي أَوقِدُوا

تَوَسَّع قليلا أو يكن ثمَ حسبُـــا ومُوقِدهُا البادي أَعَفُّ وأَحْمَــدُ([٥٩٥])

---

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه حـ١ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ، أشعار الشعراء الستة الجاهليين للأعلم الشنتمرى حـ٢ ص ٢٦٨ ، وراجع شعراء النصرانية قبل الإسلام ص ١١٦ ، وراجع ديوان حاتم الطائي ص ٥٩ .

ويضرب ولده ويزجره لضربه كلبةً تدل عليه أضيافه إذا نام موقد النار:

أَقُولُ لابنْي وقَد سَطَـتْ يَـدُه بَكَلبةٍ لا يضزالُ يَجلدُهَـا

أُوصِيكَ خَيراً بِهَا فَإنَّ لهَـا عِندْي يَداً لا أَزَالُ أَحمَدُهَـا

تَدُلُّ ضَيفِي عَلَىَّ فى غَلَسِ اللَّيْـ ـلِ إذا النَّارُ نَامَ مُوقِدُهَـا(٥٩٦)

هكذا تظهر نار" القرى " – الكرم – متكررة ، ولازمة ثابتة عند فخر الشاعر الجاهلي بكرمه ، بل هي وسيلة فنية لا تفارق هذا الغرض ، أو الحديث عن الكرم فى معظم نصوص الشعر الجاهلي.

فتظهر كمعيار للكرم والتناسب بينها وبين صفة الكرم تناسب طردي ، فكلما ارتفعت واشتدت عُرِفَ عن صاحبها شدة الكرم والسخاء ، والشاعر يحرص على أن يوقدها بنفسه أو يشرف على إيقادها هو ، ويمتزج الموقف بعبارات تحمل التوصية بها ، وهذا له جذوره فى الفكر السامي ، فعند اليهود : الرب " يهوه" يسعد وينتعش لنار المحرقات ودخانها ويغضب

---

(١) ديوان حاتم الطائي ص ٣٥ " الخب " : الخداع " البادي " : البادي بإيقاد النار وراجع شعراء النصرانية قبل الإسلام لويس شيخو ص ١١٣

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى حـ١ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣

إذا قدمت له الذبيحة غير محروقة([٥٩٧]) ولا تخفى طرق تقديم القرابين عند العمونيين على النار([٥٩٨]) ، وعند اليهود موسى يشعل النار على تقدماته بنفسه ([٥٩٩])

وتتواتر أخبار المحارق وحرق التقدمات على المذابح فى أرجاء الكتاب المقدس ([٦٠٠])

علاوة على ما عرضه بشلار فى دلالة الراحة فى النار البلسمية المريحة العذبة ، وما ذكره جيمس فريزر عن الحرمانات والمتاعب التي كان يعانى منها البشر فى العصر الخالي من النار([٦٠١])

ألا يدل ذلك على حلول لهذه الظواهر الفنية فى الشعر القديم ؟ الا يزيل غموضا عن صورة النار فى الشكول الخْيِّرة وتعدد استخدامها ويثبت علاقة بين هذه الظواهر وهذه الأصول الميثولوجية؟.

وقد مدح الشاعر الغير باستخدام نار الكرم، بعد أن كان الحديث عن فخر الشاعر بنار كرمه فى سرده لإحداث استجلاب الضيف، وإكرامه ووصاياه واهتماماته بها مع موقديها، ولم يترك الشاعر مدح الأشخاص المشهورين بهذه الخصلة المحمودة ، والتي عدها من مناسك الحياة والميلاد؛ لدرجة أنه عد كل عملية إكرام لضيف فى ظلمة الصحراء ميلادا جديدا لهذا الضيف، وإنقاذا له من هذا الجوع والبرد والتيه فى مفاوز البادية.

---

(٣) وراجع بلوغ الأرب للألوسى حـ١ ص ٧٠

(٣) القرابين البشرية والذبائح التلمودية د. فتحى الزغبى ص ١٦

(٤) الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة على الشوك ص ١٧٠ ، ١٨٠

(٥) الكتاب المقدس سفر الخروج "٤ ، ٢٩ " .

(١) راجع سفر العدد : " ٦: ١٥ " سفر التكوين " ٨ : ٢٠ ، ٢٢: ٦ "

(٢) راجع النار فى التحليل النفسي ، وأساطير فى أصل النار ، ودائرة المعارف للمعلم بطرس البستاني، وقد سبق ذكر هذه المواضع فى مكان سابق بالبحث.

فامِتُدح الكريم كما يُمتَدح الفارس الشجاع الذي يذود عن حياض القوم، والذي يعد ميلادا للعشيرة كلها، ودافعاً للأذى عنهم ، كما تستخدم النار فى مدح الفارس ، ووصف فرسه وسلاحه وهذا ينم عن رواسب روحية وأساطير تدخل أيضا فى وصف الكريم وكرمه ، ونحن لا نزال نستعرض من نيران الكرم – النار التي يوقدها العربي لإرشاد الضيفان فى صور المدح وفيها يروى الجاحظ فى البخلاء : قول الشاعر :

نارٌ تُشَبُّ بِكُلِّ رَبْـــعٍ إِذا الظَلماءُ جللَّتَ اليَفاَعَـــا

ومَا إنْ كَانَ أكثرهُمْ سويقًـا ولكِن كَانَ أَرحبَهُم دَراعَـــا (٦٠٢)

وهو يمدح صاحبه بنار كرمه التي تشب فى كل الربوع ، بالليل وقت الظلماء ، والأعشى يمدح المحلق بى خنثم بن شداد قائلا :

لَعَمرِي لقَدْ لاَحَت عُيُونُ كَثِيْرَةٌ إلى ضوء نارٍ فِى يفاعٍ يُحـَّرقُ

تُشَبُّ لِمقرورَيْنِ يَصطِليانِها وباتَ على النَّار النَّدى والمحلَّقُ (٦٠٣)

ويفتخر هنا بنار كرمه التي تلوح لكثير من عيون المارة والتي تشب ويشعرون من قبلها بالدفء والأمان مع ملاحظة أن الشاعر استخدم الأفعال : " يحرق – تشب – يصطليانها " وهذه أفعال مضارعة أفادت الاستمرار وصيغة المضارعة هنا تثبت استمرار اتقاد النار واصطلائها وهذا دلالة على تعوده للكرم وأصالته لديه ٠

(٣) البخلاء للجاحظ حـ٢ ص٢١٩ ٠

(١) ديوان الأعشى دار صادر بيروت د٠ت ص١٢٠

والحطيئة يمح صاحبه قائلا:

كَسُوبٌ ومِتْلاف إذا مَا سَألتَــهُ تَهَللَّ واهتزَّ اهتِزازَ المُهَنَّــدِ

مَتى تأْته تَعشُو إلَى ضَوءِ نَـارِهِ تَجدْ خَير نار عنَّدها خَيْرُ موقِدِ

وَذاكَ امروُء إنْ يُعطِك اليومَ نائلاً يكفيهِ لا يمنعْكَ مِن نائلِ العدِ([٦٠٤])

فالشاعر يصف صاحبه بأنه كريم لدرجة أنه " متلاف " ينفق كل ما لديه لسائله مع سعادته وتهلله واهتزازه كالسيف قبل الضرب ، ومتى تأته تر نار ضوئه وهذا دليل على استمرار الكرم لديه ومواصلة إيقاد ناره وهو لا يعدم عطاء، ولا يمن بنعمة.

ويلاحظ استخدام الشاعر لصيغ الشرط، وكأنه يقسم ويتحدى لإثبات كرم ممدوحة ففي البيت الأول، إذا ما سألته " ، والثاني " متى تأته " والثالث " إن يعطلك اليوم قائلا".

ويُروى فى قوله " تجد خير نار عندها خير موقد " أنه لما سمع عمر رضي الله عنه ذلك البيت قال : تلك نار موسى عليه السلام ، وهذا يدل على أن عمر رضي الله عنه كأحد المعاصرين لمنشئ الشعر الجاهلي، قد أوكل صوره الفنية للجذور الدينية فى المنطقة القديمة فلا تخفى نار موسى فى كتب الأقدمين، وهذا يؤيد ما يتخذه المنهج الأسطورى اليوم بإرجاع الصور إلى أصولها الدينية.

وعبيد بن الأبرص يرثى فطرة الطائي قائلا:

نِعَم المجِيْرُ وخير أُسرتَــه لِلضيْف تَعشُو نَارهُ فُطُــرَه

---

(٢) ديوان الحطيئة دار صادر بيروت ١٩٨١ ص ٥١

وراجع الحيوان للجاحظ حـ٥ ص ٢٣٤ .

فَلَقد يُهِبُ بِقلـــبِ ذِى شَرٍر ذاكٍ فلا تتعرضن شَـــــرَرَهُ

والجَارُ يُحبوه بِجَفنتَـــــهِ ولايَذمُّ رفيقُهُ حَبَـــــرَهُ([٦٠٥])

وامرؤ القيس يمدح أيضا طريف بن مالك باستخدام نار الكرم فيقول :

لَنِعْمَ الفَتَى تعْشُو إلى ضَوءِ نَارِهِ طِرَّيفْ منُ مالٍ لَيلَةَ الجُوعِ والخصرِ([٦٠٦])

والحطيئة يمدح صاحبه أيضا باستخدام نفس الصورة :

لَنِعْمَ الفَتَى تعْشُو إلى ضَوءِ نَارِهِ إذا الرِّيحُ هَبَّت والمكانُ جَرِيْـــبُ([٦٠٧])

واستخدمت النار أيضا فى مدح الجماعة(كالقبيلة أو العشيرة) فزهير يمدح القبيلة بنارهم الموقدة ذات الشرر قائلاً:

وَتُوقَد نارُكم شررًا وَيَرفَـــع لَكُم فِى كلِّ مَجْمَعَةٍ لـــــواءُ([٦٠٨])

ويفخر عمرو بن كلثوم بقبيلته بتميزهم عن القبائل بنار كرمهم قائلاً:

بِنا اهْتَدَتِ القَبائِلُ مِن مَعـــدٍّ بِنَاريِنَا وكنَّا المُوقِدِيْنَـــــا([٦٠٩])

والحطيئة يمدح القوم بأنهم أصحاب نار كرم تضيء فى الظلام للناس:

هُمُ القَومُ الَّذينَ إذا أَلَمـــتْ مِن الأيام مظلِمةٌ أَضَـــاؤا

إِذَا نَزِلَ الشِّتاءُ بِدارِ قَـــوْمٍ تَجنَّبَ دار بيتِمُ الشِّتَـــاءُ([٦١٠])

---

(١) الوحشيات "الحماسة الصغرى" لأبى تمام ص١٣٦

(٢) ديوان امرئ القيس الكندى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص١٤٢"الخصر" : البرد

(٣) ديوان الخطيئة ص٨٩

(٤) الشعر الجاهلى منهج دراسة وتقويمه ص٢١٨

(٥) جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ص٢٩١يمكن نسبة النار الأخرى لنار القوة فى الحرب

فهم القوم يضيئون بنار كرمهم ماذا نزلت النوازل المظلمة من ليل الشتاء ، أو مصيبة أظلمت بهم – فالشتاء لا يعرف بيتهم ويلاحظ استخدام الشرط بالأداة إذا فى البيتين وتلمس فى الشرط التأكيد أو القسم بما يفيد القطع بنسبة هذه الصفات لهؤلاء القوم " إذا ألمت مظلمة " ، " إذا نزل الشتاء " ويلاحظ أيضا جعل الشتاء لا يقرب دار بيتهم، وذلك بمعنيين الأول أن نار الكرم تدفئ البيت فلا يلاحظ الشتاء ببرده.

والثاني أن الشتاء بفقره وجوعه وحرصه لا يعرف دارهم فدارهم دائما فيها البذل والدفء والطعام والشبع.

وهذا تكرار لصورة النار فى المدح بالكرم علها تشير إلى النار المقدسة والممدوحة فى الخيال القديم، ونصل لصورة نار القدر كواحدة من نيران الكرم عند العرب وإذا كانت الصور السابقة قد رصدت نار الكرم التي كانوا يوقدونها وافتخر الشاعر بها ومدح ، فلم تأفل نار القدر من الشعر الجاهلي ، فالنار تحت القدر لها انعكاسها فى نفس الإنسان وخاصة فى البادية، فهي رمز خير للأمومة والإطعام ومانحة للدف والحياة.

وقد ظهرت فى شعرهم – معادلة للنار التي كان العبريون يوقدونها فى محارق معابدهم على التقدمات والقرابين([٦١١]) – كصورة مباركة للبذل والعطاء والتضحية والجود ، فالكرم لم يكن مجرد خصلة محمودة فحسب ، بل كان سلوكا وشعائر دينية لها ممارساتها التي

---

(٦) ديوان الحطيئة ص٧٥ .

.(١) للتفصيل : راجع الأساطير بن المعتقدات القديمة والتوراة، الحضارات السامية القديمة ، الفلكلور فى العهد القديم، وقد ذكر ذلك بالتفصيل فى صدر البحث.

كانت تستمد سماتها – بشكل مباشر أو غير مباشر – من التراث الديني والأسطورى الموروث فى المنطقة العربية أو الشرق الأدنى القديم.

والشاعر الجاهلي لم يهمل نار القدر، ولم ينسها فقد افتخر بها ومدح الأشخاص والجماعات، وسنعرض بعضا من نماذج تظهر فيها القدر فوق النار المباركة تشرق بالأمل والفخر والعطاء فى لوحة الكرم، فالحادرة يفتخر بمراجله حين تغلي عند الطبخ لرهط جُوَّع فيقول:

وُمعَرضٍ تَعْلي المَراجِل تَحتَــهُ عجَّلتُ طَبْخَتهُ لِرهَطٍ جُــوَّعِ

وَلدَىَّ أشْعَتُ باسِطاً ليمِينـــــه قَسَمًا لقَد أنَضجتَ لَمْ يَتَـورَّعِ([٦١٢])

تظهر صورة النار هنا من خلفية اللوحة بشكل غير مباشر ، فهي التي جعلت القدر يغلى ، وبشكل سريع، لأن القوم كانوا جياعاً يطلبون الطعام ، وبجواره أشعث من الجوع والتعب يلح ببسط يمينه ، وهو ينضح هذا الطعام على النار ، وقد استشفها الدكتور محمد النويهى من دلالات حروف الكلمات " تغلي المراجل" ودلل على علاقة أصوات تلك الحروف وصوت الماء تغليه النار ، وصوت الحطب والنار تقضمه([٦١٣]).

وهذا الحطيئة يفتخر بنار القدر لدرجة أن الغراب والذئب يطلبانها بالليل، فيقول

ويُمسي العُرابُ الأعورُ العينِ واقِفًا مَعَ الَذئب يَعتسَّانِ نَاري ومفأدى ([٦١٤])

---

(٢) الشعر الجاهلي منهج دراسته وتقويمه د٠محمد النويهى ص ٢٧١ .

(١) راجع تحليل الدكتور النويهى لتفسير الأبيات بالمرجع السابق ص ٢٧١

(٢) ديوان الحطيئة دار صادر بيروت ١٩٨١ ص ٥٠

وعند الأعشى ناره فى الشتاء القارص لا يسترها ساتر فيقول :

إذا احْمرَّ أفاق السَّمِاء وأعصفت رِياحُ الشِّتاءِ واسَتَهلتُ شُهورُهَا

تَرىَ أنَّ قِدري لا تزالُ كأنَّهَـــا لِذي الفروةِ المقرورِ أم بَزوُرُهَا

مبَّرزة لا تجعلُ الستر دُونَهـــا إذَا احمدَ النِيرانُ لاحَ بشَيرهَـا([٦١٥])

ونار القدر والشواء تستخدم عند عروة لرسم صورة البرد بشكل معكوس، اذ يصور الشاعر البرد بصورة السالب " يصور النار أو آثارها" فهو يفخر بكرمه فى الليلة الباردة، ويريد أن يعبر عن شدة البرد فى تلك الليلة فيستخدم صور آثار النار فيقول :

قَعِيدكِ عَمْرو اللّهِ هَلْ تعلميننِـــى كَرِيمًا إذا اسْودَ الأنامِلُ أَرْهَر([٦١٦])

والنار هنا تظهر بشكل غير مباشر وغرضها إظهار صفة الكرم فيه عند حرص الناس، أى فى الوقت البارد، لدرجة أن الإنسان من شدة البرد يضع يده على النار ليدفأ حتى تسود الأنامل منه ورغم ذلك فهو كريم مجواد.

واستخدمت آثار نار القدر أيضا للدلالة على الكرم ، فعظم الرماد وكثرة السواد على القدر وغيره كان دليلا

في الشعر على الكرم فأوس يمدح صاحبه قائلاً :

وما كانَ وقَّاقاً أذا الخيل أحجمَتْ وما كانَ مِبطَاناً إذا ما تجَـرَّدا

كَثيرُ رمادِ القدْرِ غير ملَعَّـــنٍ ولامؤيسٍ منْهَا إذا هُوَ أحْمَـــداَ([٦١٧])

---

(٣) ديوان الأعشى ص ٦٧

(٤) ديوان عروة بن الورد ص ٣٤ .

وعند عمرو بن قميئة قائلا: بالاستخدام نفسه:

عَظيمْ رَمادِ القِدر لاَمُتعبِّــسٍ ولامؤيسٍ منْها إذا هُوَ أَوقـدَا([٦١٨])

ويمدح كعب بن سعد الغنوى بقوله: ـ

عَظيم رَمادِ النَّارِ رَحبُ فِنــاؤُه إلىَ سندٍ لَمْ تَحتجبْــهُ عيونُ([٦١٩])

الملاحظ على صور المدح بعظم الرماد وكثرته، أن الشاعر استخدمه كمعطى طبيعي لعظم النار وكثرتها المستمدة، التي تبذل في صنع الطعام، حيث هو من مخلفات النار فأصبح دلالة حية يمدح الكريم لنيرانه الكثيرة، ويذكرنا هذا بالحلف على رماد النار([٦٢٠])

وزهير أيضا يستخدم صورة أخرى للمدح بنار الكرم على القدر، وهى المدح بكثرة إزهاق النيران وهى صورة قريبة من الصورة السابقة فيقول:

وَمُرهَقُ النيرانِ يحُمَدُ فِى الْــ لأواءِ غَيرُ مُلَعَّن القِــــدرِ([٦٢١])

وهذا الكرم فى "اللأواء" أى الجهد والشدة - وقدرة غير الملعَّنة - أى المحمودة ، لا يأكل وحده دون ضيفه وجاره.

ونلاحظ هنا أن قدر البخيل ملعونة غير مباركة، وهذه دلالة دينية روحية ، مما يثبت بدليل الخطاب، أن نار الكريم وقدرها مباركة ولها أبعادها الدينية، وإن لم تظهر مباشرة فى الشعر.

---

(١) ديوان أوس بن حجر ص ٢٠

(٢) شعراء النصرانية قبل الإسلام لويس شيخو ص ٢٩٤

(٣) شعراء النصرانية قبل الإسلام م ص ٧٤٧

(٤) راجع البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون حـ٣ ص ٧ ، ٨

(٥) ديوان زهير ص ٢٨

لذا كان يعاب البخيل ويذم بشكل تشاؤمي على تقتيره وحرصه ، وكأنه يخالف بذلك قيمة دينية لها أعماقها في المجتمع العربي .

واستخدمت القدر ونارها أيضا في صور الهجاء الجاهلي بشكل سلبي ، فالبخيل قدره وناره مستورة عن أعين الناس، حتى لا يأتوه ويشاركوه طعامه ، فيهجو زياد الأعجم بن عجل قائلا:

وَتَعْكُمُ كَلبَ الحضي مِنْ خِشيَةِ الْقِرَى وَقدركَ كالْعَذراءِ مِنْ دُونِها سِتْرُ(٦٢٢)

والشاعر هنا يجعل القدر المستورة عن الناس ، لا يرونها ولا يأكلون منها كالعذراء ، وهنا بعد آخر في هذا التشبيه فالعذراء، علاوة على سترها عن العيون، فهى معطلة لا تنجب أولادا، فهي وظيفياً معطلة ، ولا تؤدى دورها كامرأة، وأيضا قدرة لا تكون قدرا حقيقة إلا إذا شاهدها الناس وأُكِل منها كالمرأة تماما.

وعروة بن الورد ينفى صفة إخماد نار الكرم في معرض فخره بقومه فيقول :

فَكم قد حَبتء في المحَلِ نَار مُنَـافِقٍ وَمَا أَحْمِدَت نارٌ لنَا دَونَ طَارِقِ (٦٢٣)

ويلاحظ وصف من يطفئ النار بخلا " بالنفاق " مما يثبت لنار الكريم قداستها. ويقول أيضا :

إذا سَيد مِنا خلاَ قامَ سَيِّـــدُ قؤولُ كَمَا قَالَ الكِرَامُ فَعُــولُ(٦٢٤)

(١) البخلاء للجاحظ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨

(٢) ديوان عروة بن الورد ص ٧٠

(٣) المرجع السابق ص ٩٢

وامرؤ القيس الكندي يتحدث عن قومه مادحا فيهم صفة الكرم بجوار صفات أخرى فيقول :

مَتى عَهْدنَا بِطعَان الكُمَـــــا ةِ والحَمدِ والمَجْدِ والسُّـــؤدِدِ

وبني القباب وملء الجفـــــا نِ والنَّارِ وَالحطبَ والمفـــادِ([٦٢٥])

وهو بجوار فخره بطعن الشجعان وبالمجد والحمد والرياسة ، يفخر أيضا بأن آنيتهم مملوءة ويذكر أدوات النار المستخدمة عندهم في الطهي ، والشواء ، كرمز مُعَبِّر عن النار الخيِّرة " نار الكرم " المطعمة النابضة بالحياة بشكل تفصيلي ، فلم يكتف بذكر النار بل تمهل الشاعر في ذكرها وكأنه تلكأ في ذكر هذه الأدوات تبركاً واستعذابا للحديث عنها، وتمعناً في تكرارها، فذكر النار وذكر الحطب وذكر المفأد (أداة لجر الرماد مثل الفأس)، وكل هذه معطيات لنار الكرم.

وكما افتخر الشاعر بنار القدر ومدح بها بشكل مباشر، تظهر صورة النار من وراء اللوحة بطريقة غير مباشرة، حيث تبرز آثارها واضحة تنم عن وجودها في الحدث بشكل متوارٍ، فقدره سوداء من تراكم الدخان بكثافة نتيجة لكثرة النار التي توقد تحتها لصنع طعام الكرم والسخاء، والتي لا تفارق صورة النار.

وهذه القدر متسعة لدرجة أنها تسع جذورا "عراعر" أى ضخمة فيقول النابغة:

لَهُ بِفناءِ البيْتِ دَهْمَاءُ جَونَـــةٌ تلقم أوصَالَ الجذُورِ العَرَاعِرِ([٦٢٦])

---

(٤) ديوان امرئ القيس الكندي ص ١٨٧ .

(١) ديوان النابغة الذبياني ص ١٧٥

ونار الشواء أيضا تظهر بشكل غير مباشر كخلفية في لوحة يرسم فيها الشاعر مجالس الشعراء وقيامهم عنها، وتبدو صورة النار وهى لا تفارق هذه المجالس فامرؤ القيس يصف أحد هذه المجالس قائلاً:

وَظلَّ طُهاةُ اللَّحْمِ ما بيْنَ مُنضجٍ صفِيفِ شَوَاء أو قديرٍ مُعَجَّلِ (٦٢٧)

ويصف موقفا آخر قائلا:

وَظَلَّ صِحابي يَشتوون بنعمــةٍ يَصفون غاراً باللكيك الموشَّقِ (٦٢٨)

ووصف موقفا آخر قاموا عنه سعداء ، يمسحون أيدَيهم فى أعراف جيادهم من دهن الشواء قائلاً :

نَمشُّ بأعراَفِ الجيادِ أكفَّنَــا إذا نَحنُ قُمْنَا عن شواءٍ مضَّهبِ(٦٢٩)

وهذه صورة غير مباشرة للنار في حفلات الطهي والشواء لا تظهر صراحة ، وإنما هي رابضة وراء سعادة القوم ، ولا يذكر حفل من هذه الحفلات بل لا يقوم إلا بوجودها ، فتظهر آثارها في اللوحة الشعرية كما كانت تظهر في الاحتفالات المهيبة عند المحارق بمعابد القدماء ، أثناء التضحية بالتقدمات، وتقديم القرابين مشوية فتسعد برائحتها الآلة.

وبعد استعراض "نار القرى" – هدايةً الضيف – ونار القِدر والشواء يأتي عرض "نار الأثقية" والتعامل معها كأثر للديار، وهى واحدة من صور النار المتعددة ، وأثر الديار له قصته مع العربي القديم، فقد فرض عليهم التنقل والترحال وترك أحيائهم ودورهم سعيا وراء موارد عيشهم، وكان ذلك سببا في ظهور عاطفة جياشة بين الإنسان والمكان الذي عاش

---

(٢) أشعار السنة الجاهليين حـ١ ص ٢٨

وراجع شرح المعلقات السبع للزورزنى ص ٣٢

(٣) ديوان امرئ القيس الكندي ص ١٧٥

(٤) المرجع السابق ص ٥٤ .

فيه وارتبط به، تمثلت هذه العاطفة مع شعور دافق بالحنين لهذه الديار، والتحسر على ما فات من ذكرياتها ولذيذ العيش بها، وقد نبض الشعر الجاهلي في كثير من مقدمات قصائده بتعبيرات تعلن هذه العاطفة، حاملة حرارة الحزن والتحسر على أثر هذه الديار الدراسة.

وهذه المقدمات التي عرفت بالمقدمات الطللية، أخذت شكلا تقليديا كاد أن لا يفارق عملا شعريا من أعمال الشعراء الجاهليين، وكأنه طقس ديني في شكل جنائزي ينعى فيه هذه الديار التي هي رمز الحياة، يبعثها من جديد خلال بكائه هذا الطلل وذكر عناصر موجودة فيه، كأثر الظعائن والنخيل وبعر الآرام " والأثافى" التي تمثل مكان طهي طعامهم في عصر مضى في حياته، وتشبيه هذه الآثار والرسوم التي عفت بالكتابة وبالوشم ، مع بكائه وكأنه يستنبت جذور الحياة المطمورة مع هذه الآثار.

وقد أشار ابن قتيبة لهذا التقليد وعده أول مقاصد القصيدة الجاهلية ([٦٣٠]) واقترح الدكتور مصطفى ناصف أن يكون الطلل رمز الزمن وأصل وجود الشاعر فقال: " ومن المحتمل أن نقول أن الطلل هو رمز الزمن الذي يتسم بالإيجابية الواضحة، وهكذا يقول شاعر: إن لي طللا انتمى إليهً. يريد أن يقول "جذور الحياة عميقة" ([٦٣١]) وتشبيهها عنده بالوشم لم ينته إلى جامع اللمعان أو مجرد زينة.

بل عدَّة الدكتور ناصف تعويذة مجسمة تحفظ الحياة ذاتها من خلال هذا الطلل : " إن الوشم اللامع أو المجدد يقترن ببعث الحياة ([٦٣٢]) فالشاعر يعنى بوقوفه عند الأطلال

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر ١٩٦٧حـ١ ص٧٦

(٢) قراءة ثانية لشعرنا القديم د. مصطفى ناصف ص ٦١ ٠

(١) دراسة الأدب العربي د. مصطفى ناصف ص ٢٠٢

انبعاث الحياة وجعلها تدب في الحي الدارس، فأخذ البكاء عنده شكل الممارسة الطقسية ذات الدافع السحري الذي يقوم به الشاعر حالاً محل الساحر في استجلاب الحياة لذلك الربع، وقد أشارت الدكتورة ثناء أنس إلى ظاهرة البكاء بأنها تمثل أصل هذه الحياة وهو جريان الماء فى هذا الرَبع ([٦٣٣]) ونلاحظ هنا التفات الشاعر إلى الأثْفية وتكراره لذكرها كأثر بارز للديار يتفرِّس فى موضع النار " أثافيها"([٦٣٤]) يدل على رغبة الشاعر فى انبعاث هذه القوة المطعمة والموضع الخيِّر الذي يرمز إلى النار كأم مانحة باعثة للحياة، والمتمثلة في هذه الاثفية التي تمثل موضع الإكرام وبذل الطعام للأهل والأضياف.

فوقف الشاعر عند الاثفية يبكى عندها تشجيه ذكرياتها، ويدقق النظر فيها ويطنب في ذكر أوصافها : فأضلاعها الحجرية الثلاثة ، والدخان المتراكم عليها ، وكأنه يستنطق الحياة من خلال الوقوف عندها ، وذكر تفاصيلها بشكل جنائزي كأم ينعيها حزينا عليها ، ونبدأ مع طرفة وحديثه عن الأثافى بالرماد فيقول :

أشَجَاك الرَّبعُ أم قِدمُـــهْ أَم رماد دارسٌ حُممَـــهْ([٦٣٥])

وعند عبيد بن الأبرص أيضا عندما يتحدث عن أثر الديار فيقول :

مُفقراَتٌ إلا رمادا غبيـــَّا وَبَقَايَا من دِمْنةِ الأَطــلالِ([٦٣٦])

والنابغة يتحدث عن ديارهم قائلا:

دار لنُعْم بالحمآت قدْ دُثِــرتْ لَمْ يَبقَ إلا رَمادٌ بين أَظفْــارِ([٦٣٧])

---

(٢) رمز الماء في الأدب الجاهلي د٠ثناء انس الوجود، مكتبة الشباب بالمنيرة، مصر ص ٣٣

(٣) الشعر الجاهلي منهج دراسته وتقويمه د٠محمد النويهى ص ١٥١

(٤) ديوان طرفة بن العبد، دار صادر، بيروت د. ت ص٨٢

(٥) مختارات شعراء العرب لابن الشجري، ص ٤٢٤

(٦) الجمهرة لأبى زيد القرشي ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

ثم قال :

فَمَا وَجَدْتُ بِهاَ شيئاً أَلوُذ بــهِ إلاَّ النَّمام وإلاَّ موقِدَ النَّـــارِ([٦٣٨])

وهذا الموقد يحاول النابغة وصف رماده بشكل تفصيلي متأن فيقول :

رَمَاُد كَكُحلِ العَيْـنِ لأياً أبينـُــهُ

ونُؤَى كَجدْم الحوض أثلم حاشِـــعِ([٦٣٩])

فهو يرى الرماد ككحل العين في شدة سواده ، ورغم أنه قليل جدا لبعد الزمن، وما عراه من عوامل الزمن، إلا انه أسود ككحل العين ، وهذه دلالة على كثرة وشـدة النار التي كانت في الماضي تستخدم في الإطعام وإرهاق الطعام ، فكلما زاد سواد الرماد دل ذلك على كثرة استخدام الموقد .

وزهير يمدح هرم بن سنان قائلا:

غَشيتث دَياراً بالبقَيع فَثَهْـــدِ دَوارس قَدْ أَقْوَيْنَ مِنْ أمِّ معبَــدِ

أربَّت بها الأرواحُ كل عشيَّـةٍ فلم يبق إلا ال خيم مُنضـــــد

وَغَيْر ثلاثٍ كالحمامِ خوالـــدٍ وهابٍ مُحيل هَامدٍ متبلِّـــدٍ([٦٤٠])

(١) نفسه ص ١٨٥ وراجع ديوان النابغة الذبياني ص ٢٠٢

(٢) ديوان النابغة ص ٣٠

(٣) ديوان زهير ص ٦٩

obeikandi.com

وتأمل نعته للأثافى الثلاث، ثلاثة الأضلاع التي يصنع منها الموقد فهي " كالحمام" "أى الحجارة السوداء وذلك من كثرة استعمال النار فيها "والهباب" عليها لونه اسود – وهو الرماد المتراكم على الأحجار المستخدمة في الأثافى فهو أسود رغم مرور حول عليه "محيل"، وهو رغم ذلك أيضا متغير ملتصق بهذه الأحجار، تُرى لماذا يطنب الشاعر في ذكر ما قد لا يستحق ظاهريا هذا الاهتمام؟ وهو الرماد على موقد القوم او مكانه وأثره؟ نقول: إن هذا الأثر له دلالته الرمزية لمعطى الحياة المتمثل في مكان طهي طعامهم ، وطعام أضيافهم بمثابة المطبخ الآن في أى وحدة سكنية ، تخيل دوره في إمداد الحياة في هذا البيت ، وهذا بعد حيوي في هذه الرؤية ، ولا تغفل مكانه المحارق في المعابد وعند أصنام الآلهة ومالها من قداسة واحترام وهذا هو السبب الرئيسي فيما يبدو من هذا التدقيق والوقوف الطويل أمام الأثافى من قِبل الشعراء الجاهليين، وترى هل أهمية

موضع الطبخ وحدها تكفى لتبرير كل هذا الاهتمام، من شعب أدرك الحياة الوثنية وممارساتها؟.

والحديث يبدأ في الانتقال من الرماد إلى الموقد نفسه فيقول المرقش الأكبر:

تَرَكتُ بها ليْلاً طَوِيلاً ومَنْـزِلاً وَمَوقدَ نارٍ لَمْ تَرُمْهُ القَوَابــسُ

وَلَّما أَضَأنَا النَّار عِندَ شِوائِنَــا عَرانَا عليها أطلَسُ اللَّوْنِ بَائِسُ([٦٤١])

وموقد النار هذا أو موضع الرماد علاوة على انه ذكرى الحياة التي كانت مقامة في هذه الدار ، ورمز الطعام والدفء إلا أنه وهو خامد غير مشتعل علامة على الخراب ، ففي بعض المصادر " إخماد النار علامة على الموت، والعدم وإعادة النار حدث سحري "([٦٤٢]) به يعاد

(١) شعراء النصرانية قبل الإسلام لويس شيخو ص ٢٩٠ وفى رواية "تنزول"

(٢) – Dictionary of Symbol and Imagery p “187”

للحياة قيمتها وتجددها، لذا استخدمت النار ضمن الطقوس الدينية كامتياز مقرب لله وكفارة للخطايا، والفكرة التي تتجسد فيها النار هي الشكل الطقسي، وهى الموضوع الرئيسي للأديان الدنيوية([٦٤٣]) فشاهدها إبراهيم يتصاعد منها الدخان، ومنها أعطى الرب عهده لإبراهيم " ([٦٤٤]) ولا تخفى المحرقات والتقدمات على المحارق فى العهد القديم([٦٤٥]) فالنار المتقدة على حرق الأضاحى يرتاح لها الرب، ويفيد منها وينتعش من رائحة الدخان المتصاعد من حرقها، وانه يغضب كل الغضب إذا لم تقدم إليه أو إذا قدمت فى غير الصورة المقررة أى "محترقة "([٦٤٦])

إذن لم يكن العربي بدعا من الساميين الذين كانوا يضعون عند كل مذبح محرقا ، عليها تحرق الأضاحي والتقدمات، وكان ينظر إليها بتقديس وإجلال ، من هنا استمدت الأثافي احترامها وقدسيتها في نفس العربي كامتداد طبيعي للتيار السامي بكل تمثلانه ، ورواسبه، وعليه لم تكن آثار النار في " الأثفية " مجرد أثر طبيعي فحسب، بل كانت جزءا مقدسا عليه تتم مراسم البكاء لابتعاث الحياة في الربع الخَرِب.

وقد ظهرت هذه الممارسات فى الشعر الجاهلي بشكل غير صريح بمجرد رواسب ورموز إشارية تحتاج لتأن عند قراءة الشعر الجاهلي، والبحث فيه مع محاولة البحث عن الجذور الأسطورية لهذه الظواهر الفنية.

---

(٣) – Man myth and magic p " 970"

(٤) الفلكلور فى العهد القديم، جيمس فريزر، ترجمة د٠نبيلة إبراهيم حـ١ ص ٤٦، حـ٢ ، ص ٢٤٢ نقلا عن سفر التكوين ١٥ : ٧ : ١٨

(٥) راجع الكتاب المقدس سفر التكوين ٨ : ٢٠ ، الخروج ٤٠ : ٢٤

(٦) القرابين البشرية والذبائح التلمودية ص ١٦.